الفصل الأول

فضـل التوكل

التوكل عبادة من أفضل عبادات القلوب ، وخُلُق من أعظم أخلاق الإيمان ، وهو - كما قال الإمام الغزالى - منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقرَّبين ، بل هو - كما قال الإمام ابن القيم : « التوكل » نصف الدين ، والنصف الآخر « الإنابة » . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١) .

فإن الدين عبادة واستعانة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) والتوكل استعانة ، والإنابة عبادة .

* *

● **الحاجة إلى التوكل :**

وحاجة المسلم - السالك لطريق الله - إلى التوكل حاجة شديدة ، وخصوصاً فى قضية « الرزق » الذى شغل عقول الناس وقلوبهم ، وأورث كثيراً منهم - بل أكثرهم - تعب البدن ، وهم النفس ، وأرق الليل ، وعناء النهار .

وربما قبل أحدهم أن يذل نفسه ، ويحنى رأسه ، ويبذل كرامته ، من أجل لقمة العيش التى يحسبها أنها فى يد مخلوق مثله ، إن شاء أعطاه وإن شاء منعه ، فحياته وحياة أولاده فى قبضته ، فهو قادر - فى نظره - أن يحيى ويميت كما قال « نمرود » فى محاجة الخليل إبراهيم عليه السلام .

---

(١) هود : ٨٨ (٢) الفاتحة : ٥

بل ربما زاد أحدهم على ذلك ، فأفتى نفسه بأكل السحت ، وأخذ الرشوة ، واستباحة الربا ، وأكل المال بالباطل ، خوفاً على نفسه إذا شاخ بعد الشباب ، أو مرض بعد الصحة ، أو تعطل بعد العمل ، أو خشية على ذرية ضعفاء من بعده .

وقد قال الإمام عبد الله بن المبارك : من أكل فلساً من حرام فليس بمتوكل .

والمخرج من هذا كله هو الاعتصام بالتوكل على الله تعالى .

وأحوج ما يكون المسلم إلى التوكل إذا كان صاحب دعوة ، وحامل رسالة ، وطالب إصلاح ، فهو يجد فى التوكل ركناً ركيناً ، وحصناً حصيناً ، يلوذ به فى مواجهة طواغيت الكفر ، و« فراعنة » الظلم ، و « قوارين » البغى ، و«هوامين » الفساد . فهو ينتصر بالله ، ويستعز بالله ، ومَن انتصر بالله فلن يُغلب أبداً ، ومَن استغنى به فلن يفتقر أبداً ، ومَن استعزَّ بالله فلن يذل أبداً . ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

* *

● فضل التوكل فى القرآن :

ولا غرو أن عُنِىَ القرآن الكريم بالتوكل ، أمراً به ، وثناءً على أهله ، وبياناً لفضله وآثاره فى الدنيا والآخرة .

* أمر الله رسوله بالتوكل :

أمر الله به رسوله ﷺ فى تسع آيات من كتابه :

فى القرآن المكى نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٢) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ (٣) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ١٦٠ (٢) هود : ١٢٣

(٣) الفرقان : ٥٨ (٤) الشعراء : ٢١٧-٢٢٠

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (١) .

وفى القرآن المدنى نقرأ قوله سبحانه :

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ، وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (٣) .

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (٥) .

﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (٦) .

وجاء الأمر بالتوكل للرسول الكريم فى موضع عاشر ، ولكن بصيغة أخرى وهى قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ (٧) .

وذلك من أوائل ما نزل من القرآن ، حتى يستعين بالتوكل على الله فى حمل « القول الثقيل » الذى ألقاه الله عليه ، ومواجهة المكذِّبين أُولى النعمة ، والصبر على ما يقولون ، وهجرهم الهجر الجميل .

كما أمر صلى الله عليه وسلم بإعلان التوكل على الله تعالى فى أكثر من آية ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٨) ، وهذا

---

(١) النمل : ٧٩ (٢) آل عمران : ١٥٩ (٣) النساء : ٨١

(٤) الأنفال : ٦١ (٥) الأحزاب : ٣ (٦) الأحزاب : ٤٨

(٧) المزمل : ٩ (٨) الملك : ٢٩

فى القرآن المكى ، ومثل قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ لا إلهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) ، وهذا فى القرآن المدنى .

ومن المعلوم أن الأوامر التى خوطب بها النبى ﷺ ، موجهة إلى كل المكلَّفين من أمته كذلك ، ما لم يقم هناك دليل على الخصوصية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (٢) ، ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٣) ، ﴿ وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

فالأمر للرسول ﷺ بالتوكل أمر لأمته جميعاً به .

* أمر المؤمنين عامة بالتوكل :

وقد جاء الأمر بالتوكل للمؤمنين عامة على ألسنة الرسل السابقين ، كما فى قوله تعالى فى رد الرسل على أقوامهم : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ، وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

وجاء الأمر كذلك على لسان رجلين من أصحاب موسى يحثان قومهما على دخول الأرض المقدسة ، وعدم التهيب من الجبارين فيها : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

فجعل التوكل شرطاً لثبوت الإيمان ، والشرط ينتفى عند انتفاء المشروط ، ولا يقال : إن هذا كان شرع من قبلنا ، فإن شرع مَن قبلنا شرع لنا ، ما لم

---

(١) التوبة : ١٢٩ (٢) التوبة : ١٠٣ (٣) النحل : ١٢٥
(٤) هود : ١١٤ (٥) إبراهيم : ١١ (٦) المائدة : ٢٣

يرد نسخ له فى شرعنا ، وإلا كان ذكره عبثاً ، ولم يكن لنا فيه عبرة ولا أُسوة ، وهو خلاف ما نص عليه القرآن . وشرعنا لم ينسخ التوكل بل زاده توثيقاً وتأكيداً .

فقد جعله الله تعالى من الأوصاف الأساسية للمؤمنين الصادقين ، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ (١) ، كما أمر الله تعالى به فى كتابه بقوله : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) ، وورد الأمر كذلك فى سورة المائدة الآية رقم (١١) والمجادلة الآية رقم (١٠)

* التوكل خُلق الرسل جميعاً :

وقد أكد لنا القرآن أن « التوكل » كان خلق رسل الله جميعاً ، منذ نوح شيخ المرسلين إلى محمد خاتمهم ، صلوات الله عليهم جميعاً .

يقول تعالى على لسان الرسل جميعاً : ﴿ وَمَالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٥) .

وقال على لسان نوح : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (٦) .

وقال تعالى على لسان هود وقد خوَّفوه أن تعتريه آلهتهم بسوء ! فقال

---

(١) الأنفال : ٢ - ٤ (٢) التوبة : ٥١ (٣) آل عمران : ١٦٠
(٤) التغابن : ١٣ (٥) إبراهيم : ١٢ (٦) يونس : ٧١

متحدياً : ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ (١) .

وقال تعالى على لسان إبراهيم والذين معه ، الذين تبرؤوا من قومهم ومما يعبدون من دون الله : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه على لسان شعيب : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٣) .

وقال في شأن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

* القرآن يبين آثار التوكل :

وقد جعل الله تعالى الإيمان شرطاً للتوكل في قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥) والمعلَّق على شرط ينتفي بانتفائه ، فإذا انتفى التوكل انتفى الإيمان .

وقال تعالى في بيان أثر التوكل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٦) ، فجعل نفسه تعالى جزاء للمتوكل وأنه كافيه وحسبه ، وكفى بهذا فضلاً ، فقد قال في السورة نفسها : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ (٧) ، فجعل لها جزاءً معلوماً ، وجعل نفسه تعالى حسب المتوكل وكافيه .

كما أخبر تعالى أنه : ﴿ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٨) ، وأي درجة أعلى من درجة مَن يحبه الله عَزَّ وجَلَّ ؟ قال الغزالي : وأعظِمْ بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى مُلابسه ، فمَن الله تعالى حسبه وكافيه ،

---

(١) هود : ٥٤ - ٥٦ (٢) الممتحنة : ٤ (٣) هود : ٨٨
(٤) يونس : ٨٤ - ٨٦ (٥) المائدة : ٢٣ (٦) الطلاق : ٣
(٧) الطلاق : ٢ (٨) آل عمران : ١٥٩

ومحبه وراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم [١] فإن المحبوب لا يعذّب ولا يبعد ولا يحجب .

وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [٢] فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل ، هو المكذِّب بهذه الآية ، كما يقول الغزالى ، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق .

وقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٣] ، أى « عزيز » لا يذل مَن استجار به ، ولا يضيع مَن لاذ بجنابه ، والتجأ إلى ذمامه وحماه ، و« حكيم » لا يقصر عن تدبير مَن توكل على تدبيره .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [٤] ، فبين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يُتوكل عليه ؟!

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُواْ عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ [٥] .

وقال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [٦] .

قال الإمام الغزالى : وكل ما ذُكر فى القرآن من « التوحيد » فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار ، والتوكل على الواحد القهّار [٧] .

* *

---

(١) وفى هذا رد على العلامة الهروى صاحب « منازل السائرين » فى قوله : إنه من أوهى السبل عند الخاصة ، وإن كان من أصعب المنازل على العامة ، وقد رد عليه ابن القيم فى « المدارج » فأحسن وأفاد ، رحمهما الله .

(٢) الزمر : ٣٦ (٣) الأنفال : ٤٩ (٤) الأعراف : ١٩٤

(٥) العنكبوت : ١٧ (٦) المنافقون : ٧

(٧) انظر : إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣ ، ٢٤٤) طبع دار المعرفة ، بيروت .

• فضل التوكل فى السُّنَّة :

وفى الصحيحين فى حديث السبعين الفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة ، وُصِفوا بأنهم : « هم الذين لا يَسْتَرْقُون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » (١) .

وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللَّهم لك أسلمت ، وبك آمنت . وعليك توكلت . وإليك أنبت ، وبك خاصمت . اللَّهم إنى أعوذ بعزتك - لا إلٰهَ إلَّا أنت - أن تضلنى . أنت الحى الذى لا يموت . والجن والإنس يموتون » (٢) .

وفى الترمذى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » (٣) . ومعنى «خماصاً » أى فارغة البطون .

وفى السنن عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قال - يعنى إذا خرج من بيته - بسم الله . توكلت على الله . ولا حَوْل ولا قُوَّة إلا بالله ، يقال له : هُديت ووُقيت وكُفيت . فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُقى » ؟ (٤) .

وفى سنن أبى داود عن أبى مالك الأشعرى مرفوعاً : « إذا ولج الرجل بيته ، فليقل : اللَّهُمَّ أسألك خير المولج ، وخير المخرج . بسم الله ولجنا ، وباسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليُسلِّم على أهله » (٥) .

* * *

---

(١) رواه البخارى فى الطب ، ومسلم فى السلام عن ابن عباس .

(٢) رواه مسلم عن ابن عباس . صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٣٠٩) .

(٣) رواه الترمذى فى « أبواب الزهد » برقم (٢٣٤٥) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه برقم (٤١٦٤) ، وأحمد فى مسند عمر برقم (٢٠٥) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وابن حبان فى صحيحه « الإحسان » برقم (٧٣٠) وقال محققه : سنده جيد ، والحاكم فى المستدرك (٤/٢١٨) .

(٤) رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٩٠) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٢) وقال : حسن صحيح غريب ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً .

(٥) رواه أبو داود فى « الأدب » (٥٠٩٢) .